الكتب

ضحى الاسلام

لقد العلامة أحمد أمين الأستاذ بكلية الاداب ونشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر في ٣ مجلدات القطع الكبير وقدم له (الدكتور طه حسين بهذه المقدمة) وستعود الرسالة الى هذا الكتاب بقلم فتقول كلمتها فيه . قال الدكتور :

أراد ناقد من نقاد التمثيل أن يثني على قصة راقته ، وملكت عليه إعجابه ، وكان صاحب القصة له صديقاً حميما ، فتوقع أن يلام في الثناء عليه ، ولكنه لم يتحرج من إهداء هذا الثناء الى صديقه في غير تردد ولا تحفظ . وأعلن في صراحة - أعجبتني - أن من خيانة الأصدقاء أن تتخذ صداقتهم وسيلة الى جحود مالهم من حق ، وإخفاء مالهم من فضل ، وتجاملهم هذه المجاملة السلبية التي تدفعك الى أن تتردد وتتحفظ ، وتقدم اليهم ثناء منقعاً شاحبا ، حتى لا تتهم بالاغراق ، ولا توصف بالمحاباة . وحتى لا يسوء ظن قرائك بنصيبك من الانصاف ، وحظك من الاستقلال .

رأى ذلك الناقد ، وأنا أرى معه ، أن هذا النحو من معاملة الأصدقاء خيانة منكرة ، وظلم قبيح . وأنه في الوقت نفسه نوع من اتهام النفس ، والاسراف في سوء الظن بها . فليس ينبغي للناقد أن يُصدِّر - فيما يرى من رأي - عما يقول الناس فيه أو ما يمكن أن يقولوا فيه ، وإنما هو مدين لنفسه ولقرائه بما يعتقد أنه الحق الخالص ، سواء أرضي الناس أم سخطوا ، وسواء أوافق رأيه هوى القراء ، أم انحرف عنه .

وعلى هذا النحو من الاستعداد عمدت دائماً الى النقد ، واجتهدت ما استطعت ألا أظلم الصديق لصداقته ، ولا الخصم لخصومته ، وليس الظلم مقصوراً على أن تنقص من العمل الأدبي أو العلمي ، أو تنقص من قيمته لأن صاحبه صديق لك ، أو حرب عليك . بل هناك ظلم أقبح من هذا وأشنع . وهو أن تثني على من لا يستحق الثناء ، أو تغلو في حمد من لا يستحق الحمد إلا بمقدار ، وأن تحمد الخصم لأنه خصم ، ولأنك تكره أن يقول الناس فيك خاصمه فعجز عن انصافه وتحامل عليه .

ولست أريد أن أخون صديقي « أحمد أمين » بالاسراف في الثناء عليه ، ولا أن اخونه بالنقص منه والتقصير في حقه . وما أريد أن أنسى صداقته ، وأهمل - ولو لحظة قصيرة - ما بيني وبينه من مودة كلها صفو وإخاء استطعنا أن نجعله فوق ما يتنافس الناس فيه من المنافع وأغراض الحياة . إنما أريد أن أنصفه . وأشهد لقد فكرت وقدرت ، وجهدت نفسي في أن أجد شيئاً من العيب في الخطر أصف به هذا الكتاب الذي أقدمه الى القراء فلم أجد ، ولم أوفق من ذلك الى قليل ولا كثير .

وليس ذنبي أن « أحمد أمين » قد قصد الى عمله في جد وأمانة وصدق ، وقدرة غريبة على احتمال المشقة والعناء ، والتجرد من العواطف الخاصة . والأهواء التي تعبث بالنفوس ، فوفق من ذلك إلى أعظم حظ يستطيع العالم أن يظفر به في هذه الحياة .

نعم ؛ وليس من ذنبي أن « أحمد أمين » قد استقصى فأحسن الاستقصاء ، وقرأ فأجاد القراءة ، وفهم فأتقن الفهم ، واستنبط فوفق إلى الصواب . ليس من ذنبي هذا ولا ذاك ، وليس من ذنبي أن « أحمد أمين » بعد هذا كله ، وبفضل هذا كله ، قد فتح في درس الأدب العربي باباً وقف العلماء والأدباء أمامه - طوال هذا العصر الحديث - يدنون منه ثم يرتدون عنه ، أو يطرقونه فلا يُفْتَح لهم ، ووفق هو الى أن يفتحه على مصراعيه ، ويظهر الناس على ما وراءه من حقائق ناصعة ، يبتهج لها عقل الباحث والعالم والأديب . ليس شيء من هذا ذنبي أنا ! وإذا لم يكن بد من أن يلام أحد لأن عالماً مصريا قد وفق إلى هذا الفوز المبين ، أهدى إلى اللغة العربية كتاباً لم يُسبق الى مثله ، فليُلَم هذا العالم المصري نفسه ، وليعاقب « أحمد أمين » لأنه قد ظفر بهذا الفوز .

لقد اختار « أحمد أمين » لكتابه عنوانه هذا « ضحى الاسلام » وهو لا يقدر إلا أن الضحى يأتي بعد الفجر ، وأنه وقد أظهر « فجر الاسلام » يجب أن ينفس في ضحاه . أما أنا ، فكنت أفهم معه هذا الفهم ، وأذهب معه هذا المذهب ، ولكني لم أكد أبدأ معه قراءة الكتاب حتى أخذت أحس شيئاً لم أرد أن أتحدث به إليه ، مخافة أن يكذب ظني مضيتا في قراءة الكتاب ، ولكننا مضينا ، ومضينا حتى أتممنا هذا الجزء الذي نقدمه الى

القراء. فاذا هذا الشيء الذى كنت أحسه يزداد وضوحاً وجمالا وقوة. واذا ظنى يصدق شيئاً فشيئاً حتى يصبح يقيناً، وإذا أنا مؤمن ايماناً لا يشوبه الشك بأن هذا الكتاب الذى أنا سعيد بتقديمه الى القراء يُلقى على تاريخ الاسلام فى العصر العباسى الأول نوراً رائعاً وضاء. فويا هو أشبه شيء بنور الضحى.

فالكتاب «ضحى الاسلام» لأنه يدرس تاريخ الحياة العقلية للمسلمين فى القرن الثانى للهجرة، وهو «ضحى الاسلام» لأنه قد جلى هذه الحياة وأظهرها للناس كأوضح ما يمكن أن تكون، وكأجمل وأبهى ما يمكن أن تكون، ولست أدرى أيهما أهنىء بهذا الفوز «أحمد أمين» لأنه قد جد وألح ومضى فى الجد والالحاح، حتى انتهى الى هذا التوفيق، أم الجامعة المصرية لأنها قد اهتدت الى «أحمد أمين» ووكلت اليه ما وكلت من أنواع الدرس وفنون البحث، ولعل الخير كل الخير فى أن أصرف هذه التهنئة عن «أحمد أمين» وعن الجامعة الى الذين يقرأون اللغة العربية، ويعنيهم أن يؤرخوا آدابها، ويستكشفوا ما اشتملت عليه من الكنوز التى كانت مجهولة الى الآن، هؤلاء أحق بالتهنئة لأنهم سيسيرون منذ اليوم الى أغراضهم فى طريق واضحة سهلة معبدة، يغمرها نور الضحى.

لن تكون حياة المسلمين منذ اليوم، كما كانت من قبل، غامضة مضطربة، يتحدث عنها مؤرخو الآداب بالتقريب لا بالتحقيق، ويقولون فيها بالظن لا باليقين. ذلك عصر قد انقضى، وألقى بينه وبين الذين سيؤرخون الآداب ستار صفيق. ألقاه «احمد أمين» وأصبح الذين يقصدون الى تاريخ الأدب قادرين منذ اليوم على أن يحققوا ويستيقنوا، ويسيروا فى بحثهم على بصيرة وهدى.

ما أكثر ما كنا نضيق صدراً بهذه الرموز الغامضة التى كان يلجأ اليها مؤرخو الآداب حين كانوا يذكرون تطور الحياة الاسلامية — أيام بنى العباس — بفضل الاختلاط بين العرب وغيرهم من الأمم. وبفضل اتصال العقل العربى بالعقول الأجنبية، وبفضل الترجمة والمترجمين؛ والتأليف والمؤلفين. كانت هذه الألفاظ كلها رموزاً إلى الآن تدل على أشياء كثيرة، ولكنها لا تدل على شيء. تُصوِّرُ أمام الباحثين صوراً مختلطة مضطربة لا تحصى ولا تستقر، فهى ذاهبة أبداً، جائية أبداً، غامضة أبداً. نسعى اليها، ولا نظفر بها. أو يصرفنا عنها الكسل العقلى؛ الذى هو آفة حياتنا الأدبية فى هذا العصر.

أما الآن فقد ضبطت هذه الصور أحسن ضبط. وجليت أحسن تجلية. وأصبحنا إذا ذكرنا تطور الأمة العربية أو الأمم الاسلامية فى القرن الثانى للهجرة نعرف بل نحس حقيقة هذا التطور ومصدره، والآماد التى انتهى اليها، وأصبحنا إذا ذكرنا الحياة الاجتماعية للمسلمين فى هذا العصر لا نقول كلاما مبهماً، وإنما نقول كلاماً يدل على ما يراد به أحسن دلالة وأجلاها: يدل على طبيعة هذه الحياة وما تقوم عليه من اتصال بين الأفراد والجماعات، على اختلاف الأجناس والبيئات والأمزجة، يدل على طبيعة الزواج الذى كان يكون بين هؤلاء الناس فيخلط دماءهم خلطاً، أو قل يمزجها مزجا. يدل على طبيعة الرق الذى محا الشخصيات الفردية والاجتماعية لكثير من الأفراد والأمم، وصهرها كلها فى مرجل واحد هو الدولة الاسلامية، فكون منها شخصية جديدة كل الجدة. طريفة كل الطرافة، هى شخصية الأمة الاسلامية.

نعم، ويدل على هذه الطبقات التى كان يتألف منها الجسم الاجتماعى للامة الاسلامية، والتى كانت تقسم فيما بينها الأعمال الكثيرة المختلفة، التى يحتاج اليها هذا الجسم لا ليحيا فحسب، بل ليرقه هذه الحياة ويرقيها، ويأخذ فيها بأعظم حظ ممكن من الترف المادى والعقلى والشعورى جميعاً.

واذا ذكرنا الثقافة اليونانية، فلن نفهم منها منذ اليوم هذا المعنى المبهم الذى نرمز اليه بالفلسفة أحياناً، ولكنا سنعرف بالضبط مقدار ما أخذ العرب عن اليونان، وكيف أخذوه، ومن أين أخذوه، وكيف أساغوه أولا، ثم تمثلوه بعد ذلك؟ وقل مثل هذا فى الثقافة الهندية والفارسية، أستغفر الله بل خيراً من هذا. قل أكثر جداً من هذا، فما أعلم أن باحثاً عن تاريخ الأدب العربى وفق إلى تحقيق الصلة بين العرب والهند، أو بين العرب والفرس إلى مثل ما وفق اليه «احمد أمين».

وهو — بعد هذا كله — أول من بسط هذا فى اللغة العربية بسطاً يطمئن اليه الباحث الذى يسلك إلى بحثه طريق الجد والصدق، لا طريق العبث والتضليل.

واذا ذكرنا الثقافة المسيحية والثقافة اليهودية، فلن نفهم منهما منذ اليوم ما كنا نفهمه من قبل، من أن اتصال المسلمين باليهود والنصارى قد أحدث بين أولئك وهؤلاء ضروباً من التأثير العقلى العام.

ولكنا سنعرف طبيعة هذا التأثير ومقداره ومصدره، ثم

سنضع أيدينا على مظاهر هذه الحياة الجديدة، فيما أنتج المسلمون من أدب وعلم وفن.

أستطيع أن أقول إن «احمد امين» حينما انتدب لتأليف هذا الكتاب قد اتخذ لأمة المحارب، ووضع أمام عينيه غرضاً أقسم ليبلغنه، أو ليعذرن عن إظهار الكتاب. وهذا الغرض هو تخليص الحياة العقلية الاسلامية في القرن الثاني من الغموض والابهام، وما زال بهذا الغموض والابهام حتى أجلاهما عن موقفهما، وانتزع منهما حياة المسلمين العقلية إلى منتصف القرن الثالث للهجرة. وكان يزورني كل أسبوع ومعه طائفة جميلة رائعة من الغنائم التي كان يكسبها في هذه الحرب الشاقة المتصلة، فأقاسمه سعادته بالظفر، واغتباطه بالفوز.

ولست أحب أن تقدر أني أعمد في هذا الكلام إلى ضروب المجاز وألوان التخييل لأزين القول وأنمقه، ولكني أحب أن تستيقن أني إنما أقول الحق خالصاً من كل زينة، بريئاً من كل تنميق. فقد كان تأليف هذا الكتاب حرباً عنيفة طويلة سجالا بين المؤلف وبين الغموض والابهام. وكان المؤلف كلما تقدم خطوة وقف ينظم انتصاره، ويصوغ ثمراته هذه الصيغة الجميلة التي سنراها في فصول هذا الكتاب ويذهب في الوقت نفسه لمعركة أخرى يكسب بها موقعة أخرى، ويقتصر بها انتصاراً جديداً.

ومع أن المؤلف قد أنفق جهداً قوياً في أن يجنبك مشاركته فيما كان يحتمل من عناء، ويلقى من مشقة، ويذوق من مرارة الصبر والمصابرة، ومطاولة المسائل المعضلة التي كانت تعرض له. فأنت واجد أثر هذا كله في فصول الكتاب، حين ترى المؤلف يسير في أناة تشبه البطء، ويعرض عليك جزئيات ضئيلة، تشبه أن تكون إغراقاً في التفصيل، وتقليداً للجاحظ في حب الاستطراد، ولكن اثبت لهذا البطء، واصبر لهذا التفصيل، وامض مع الكاتب في رفق وأناة فسترى أن نتيجة هذا الثبات والصبر والرفق أقوم جداً مما كنت تظن، وأنفس جداً مما كنت تنتظر، وأن الكاتب لم يتورط فيها تورطاً، وإنما قصد اليها قصداً، وتعمدها تعمداً؛ لأنه لم يكن يستطيع ان يعدل عنها حتى يضحي بالأمانة العلمية، والتحقيق الذي يفرضه البحث الحديث فرضاً على العلماء.

ولا تخف من هذا البطء، ولا تشفق من هذه المطاولة، فلن يعترضك ملل، ولن يقل من حدك سأم، ولن تضيق بالكتاب لحظة، فقد عرف الكاتب كيف يهون عليك طول الطريق إلى غايتك، وكيف يبث أمامك في هذه الطريق من الزهر ما يستهوي عينك، وكيف ينثر حولك في هذه الطريق من الأصداء الحلوة ما يخلب أذنك. وأنا زعيم بأنك ستحتاج إلى أن تعيد قراءة بعض الصحف وبعض الفصول. وسترى أن الكاتب على ابطائه وأناته مسرع مسرف في السرعة بعض الأحيان.

أشهد لقد وفق «أحمد أمين» في هذا الكتاب الى الاجادة العلمية والفنية معاً: استكشف الحياة العقلية الاسلامية استكشافاً لم يُسبَق اليه، ثم عرضها عرضاً هو أبعد شيء عن جفاء العلم وجفوته، وأدنى شيء الى جمال الفن وعذوبته.

فلينعم القراء بفصول هذا الكتاب، ولينعم المؤلف بما ينعم به الظافر حين ينتهي الى فوز لا تشوبه شائبة. ولكن هذه الحياة الجادة الخصبة المنتجة - في تواضع ولين جانب - التي يحياها «أحمد أمين» درساً نافعاً، ومثلاً صالحاً للذين يريدون أن يحيوا في مصر حياة العلماء.

طه حسين

المنهل الصافي

لأبي المحاسن بن تغري بردي

للأستاذ عبد الله عنان

من آثارنا التاريخية النفيسة كتاب «المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي»، تأليف أبي المحاسن بن تغري بردي المؤرخ المصري الكبير المتوفى سنة ٨٧٤ هـ (١٤٦٩ م) وهو معجم ضخم للتراجم يقع في ثلاثة مجلدات كبيرة، وتوجد منه نسختان خطيتان بدار الكتب المصرية. وفيه يترجم المؤلف أعلام الاسلام منذ أوائل الدولة التركية ويبدأ بالمعز أيبك التركماني زوج شجرة الدر وملك مصر (٦٤٨ — ٥٥ هـ) أعني منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادي إلى منتصف القرن الخامس عشر، ويفيض بوجه خاص في سير أعلام مصر والشام من ملوك وساسة وجند وعلماء وأدباء، ويترجم أيضاً بعض ملوك النصرانية وأمرائها في هذه العصور، مرتباً ذلك كله على حروف المعجم. وقد جعل أبو المحاسن مؤلفه تكملة أو ذيلا لمعجم الصفدي الشهير «الوافي». ولهذا الأثر